

المحاضرة الثالثة

الفرق الإسلامية (3)

الأشاعرة

استمرّ البحث في العقيدة وفي دقائق علم الكلام في رحاب الرّقعة الإسلامية، لكن هذه المرة باختلاف وصراع فكري حاد حدّة مناخ أهله، إذ ظهر بين ظهري غلبة التّفكير العقلي الذي كان المعتزلة مترّعين على عرشه، وأسياده رجل دعوته التي وجد فيها العامة قبل الخاصّة هدوء بال وراحة مما كانوا يجدونه مع المعتزلة .

أبو الحسن الأشعري:

مؤسّس المنهج الوسطي هو "علي بن إسماعيل بن أبي بشر الأشعري بالبصرة سنة 260هـ، وهي السّنة التي مات فيها الكندي فيلسوف العرب، وينتهي نسبه إلى أبي موسى الأشعري صاحب رسول الله ﷺ؛ وقد ورد في صحيح البخاري أن الرسول أثنى على قوم أبي الأشعري بقوله: "إنّ الأشعريين إذا أرمّلوا في الغزو أو قلّ طعام عيالهم بالمدينة جمعوا ما كان عندهم في ثوب واحد ثم اقتسموه بينهم في إناء واحد بالسّوية، فهم مني وأنا منهم".

نشأ الأشعري وشبّ في بيئة معتزلية الفكر بالمعنى الخاص، وليس فقط بالمعنى العام، "فوالدته قد تزوّجت من إمام المعتزلة في عصره وشيخ من شيوخها أبو علي الجبائي (235-303هـ)، فنشأ الأشعري تلميذا للجبائي يأخذ عنه علم الكلام -أصول الدين -، وفي فقه الشّافعي تتلمذ على أبي إسحاق المروزي، فيكون الرجل أشرب الاعتزال منذ نشأته الأولى في بيته، وعلى يد علم من أعلام الفكر الاعتزالي.

وتجمع كتب السّير والتراجم أنّ الأشعري نشأ معتزليا فاطّل على "آراء الفقهاء والمحدّثين، فتردّد على حلقة أبي إسحاق المروزي ودرس ورجّح بين الآراء فغلّب رأي أهل السلف، ولكنّه رأى أن الاقتصار على قضايا الفقهاء يجعل الدّين قضايا جامدة والاقتصار على آراء المعتزلة الكلامية يجعل الدين قضايا عقلية وبراهين منطقية؛ ولما كان الدّين يخاطب العامة والخاصّة وميزته الوسطية، جاء أبو الحسن الأشعري بمنهجه الوسطي الذي يجمع بين الفقه والحديث وبين علم الكلام؛ ذلك أنّه خالف الأقدمين الذين حاربوا علم الكلام، فخالفهم أن درس الكلام على أيدي المعتزلة وأفاد منهم الكثير، فلما تحوّل لأجل الهدف الأكبر

وهو الحفاظ على العقيدة والدِّفاع عنها ورسم طريق يرضي العامة والخاصة ويجمع الكلمة ولا يفرّقها.

عقائد الأشاعرة

ينطلق الأشعري في تأسيسه المعرفي لمذهبه العقائدي من مسلّمة الدّات الإلهية، فهي الأصل وكل ما يأتي بعدها فروع لها، هذا بالاعتماد على البرهان والاستدلال النّقلي والعقلي، فالتّأصيل الفكري للفرقة يتطلب منها المراعاة والموازنة بين الثّنائيتين دونما تغليب إحدهما على الأخرى إلا في حالات استثنائية.

حقيقة الوجود:

يتساءل الأشعري عن الدّليل على أنّ للخلق صانعاً صنعه ومدبّراً دبّره ليصل إلى أنّ الدليل على ذلك "أنّ الإنسان الذي هو في غاية الكمال والتمام، كان نطفة ثم علقة ثم لحماً ودماً وعظماً، وقد علمنا أنّه لم ينقل نفسه من حال إلى حال، لأنّا نراه في حال كمال قوته وتمام عقله لا يقدر أن يحدث لنفسه سمعاً ولا بصرًا، ولا أن يخلق لنفسه جارحة" يستدل الأشعري بالمراحل العمرية وتطور الإنسان فيها، ثم تحوّل القطن والطّين من حال إلى حال يتطلّب فاعلاً، وهذا ما يدلّ على أنّه ليس هو الذي ينقل نفسه في هذه الأحوال، وأنّ له ناقلاً ينقله من حال إلى حال ودبره على ما هو عليه.

الآلية التي يعتمد عليها هي ملكة العقل أو "ما يمكن أن نسمّيها بداهة الفطرة الإنسانية السليمة، تلك التي تدرك بالطّبع ضرورة وجود صانع إذا رأت المصنوع وتحدّد مكانة هذا الصانع من خلال مكانة المصنوع؛ الإنسان فُطر على التّفكّر والتدبّر في الخلق إدراكاً للخالق والصانع له ولهذا الوجود.

أفعال العباد:

يختلف الأشاعرة في هذا عن المعتزلة، إذ ترى المعتزلة أنّها من خلق الإنسان لكي يستحق عليها الثّواب والعقاب، إلا أن الأشاعرة يرون أنّها كلّها مخلوقة لله، سواء أكانت خيراً أم شراً وهي مكتسبة للعباد، والكسب هو تعلّق قدرة العبد وإرادته بالفعل، أمّا الفعل فهو من صنع الله لأن قدرتنا لا تؤثر في مقدورنا مطلقاً هي نفسها مخلوقة لله، والله أجرى سنته بأن خلق مع القدرة الحادثة الفعل الذي أراده وقصد إليه.

مرتكب الكبيرة:

هو الأصل الذي انطلق منه المعتزلة والذي أثار جدلاً بينهم وبين مخالفهم، إلا أنّ الأشاعرة ترى أن صاحب الكبيرة إذا خرج من الدنيا عن غير توبة يكون حكمه إلى الله إما أن يغفر له ويرحمه، وإما أن يشفع فيه الرسول صلى الله عليه وسلم، ومرتكب الكبيرة إما أن يعذّبه بمقدار جُرمه ثم يدخله الجنة برحمته، ولا يجوز أن يخلّد في النار مع الكفار.

الحسن والقبح الشرعيان:

ترى الأشاعرة أن الواجبات تثبت كلها بالشرع، والعقل لا يوجب شيئاً ولا قدرة له في التحسن والتّقبيح، فمعرفة الله بالعقل تحصل وبالسّمع تجب، وكذلك شكر المنعم وإثابة المطيع، وعقاب العاصي يجب بالسمع دون العقل؛ المعتزلة المخالفون الذين رأوا أنّ العقل قادر وحده على التّمييز بينهما دونما حاجة إلى النقل الصّحيح.

مكتبة المحاضرة:

- حمودة غرابة، الأشعري، مطبوعات مجمع البحوث الإسلامية، القاهرة، د ط، 1973.
- عبد القادر محمد الحسين، إمام أهل الحق أبو الحسن الأشعري، المشرق للكتاب، دمشق، ط2010، 1.
- الأشعري، اللمع في الرد على أهل الزيغ والبدع، تح حمودة غرابه، مطبعة مصر، القاهرة، د ط، 1955.
- عبد القادر محمد الحسين، إمام أهل الحق أبو الحسن الأشعري، المشرق للكتاب، دمشق، ط2010، 1.
- صالح بن مقبل بن عبد الله العصيمي التميمي، الإمام الأشعري حياته وأطواره العقديّة، دار الفضيلة، السعودية، د ط، د س.